سورة العصر

دروس ... وعبر

دكتـــور
أحمد رمضان مصطفى دياب
مدرس التفسير وعلوم القرآن
جامعة الأزهر - كلية أصول الدين - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين. سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومَن عمل بسنته واهتدى بهديه إلى يوم الدين ..

أما بعـــد

فإن الله تعالى خلق الإنسان وكرمه ، وأحاطه بعلمه ورعايته ، وزوَّده بالقدرة على المعرفة ، بما أودع فى نفسه من خصائص التمييز بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، وهداه إلى الطريق الصحيح وأعانه على الهدى ، وتركه بعد ذلك لاختيار مصيره ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** ﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿ **وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ﴾[٢] ، وقال تعالى : ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾[٣] .

فالإنسان – بما أودع الله فى طبيعته من الاستعداد المزدوج لسلوك أىّ النجدين– هو الذى يختار لنفسه ، فيجلب لها الربح والسعادة ، أو الخسار والشقاء ، فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى** ﴾[٤] ، وما كان الله ليظلمهم ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، قال تعالى : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾[٥] .

فلا عجب بعد ذلك إذا رأينا القرآن الكريم يرسم لنا طريق الفوز والفلاح ، ويحدد لنا منهج الربح وشروط النجاة ، ويضع للحياة البشرية المنهاج الكامل كما يريده الإسلام .

ومن الآيات التى تحدثت فى هذا الشأن . تلك السورة القصيرة[٦] – ذات الآيات الثلاث – التى تُعد من عظائم سور القرآن الكريم ، وهى على قصرها ووجازتها

---

(١) الآية ٣ من سورة الإنسان .

(٢) الآية ١٠ من سورة البلد .

(٣) الآيات ٧ : ١٠ من سورة الشمس .

(٤) الآيات ١٢٣ : ١٢٦ من سورة طه .

(٥) الآية ٤٦ من سورة فصلت .

(٦) أعنى سورة العصر .

معجزة قرآنية بلفظها ومعناها ، مُنجية لمن أخذ بها وعمل بما فيها ، حيث وضحت تلك السورة طريق الفلاح وحددت شروط النجاة .

فهى لذلك جديرة بالدراسة ، حَرِيَّة بالفهم وإمعان النظر ، لما فيها من كنوز القرآن الكريم ، الذى أنزله ربه رحمة للعالمين ، ولما اشتملت عليه من تحديد المنهاج الكامل للحياة البشرية كما يريدها الإسلام .

خاصة فى هذا العصر الذى تكالبت علينا فيه أمم الأرض ، وتركت فيه الأمة الإسلامية شريعة ربها ، وسنة نبيها ﷺ ، وانحرفت عن طريق الجادة ، وحَكَّمَت القوانين والنُظم الوضعية ، التى استوردتها من هنا وهناك ، فساءت مفاهيمها ، واختلطت تقاليدها بتقاليد غيرها ، وضل أكثر الناس عن صراط الله المستقيم ، فحالفهم البوار والخسران ، وخالفهم الربح والفلاح .

ألا ما أحوجنا -نحن المسلمين- أن نعود إلى كتاب ربنا ، وسنة نبينا الكريم ﷺ ، فنتمسك بأسباب الفوز ونأخذ بها ، ونترك أسباب الخسار ونتجنبها ، ولن يكون ذلك إلا بفهم كتاب الله عز وجل ، والوقوف على هدايته ، والعمل بما يرشد إليه .

ولعل ذلك كان السبب - بعد إرادة الله وتوفيقه - فى اختيارى لدراسة تلك السورة الكريمة ، ومحاولة الوقوف على معانيها وأسرارها ، وتحقيق أهدافها وغاياتها، فاستعنت بالله تعالى وقمت بكتابة هذا البحث الموجز فى فقه تلك السورة الكريمة ، وما ترشد إليه من دروس وعبر مستفادة ، وسَمَّيْتُه : "**سورة العصر .. دروس وعبر**" .

واخترت أن يكون منهجى فيه - بعد هذه التقدمة - على النحو التالى :

البدء بتمهيد بين يدى السورة ، هو بمثابة المدخل لدراستها وفقهها ، ثم قمت بتوضيح معنى الآيات باختصار ، ثم كان الحديث عن فقه السورة والدروس المستفادة منها ، ثم ختمت البحث ببيان مراجعه وفهرس الموضوعات .

واللهَ أسألُ أن يجبر خللى ، وأن يغفر زللى ، وأن يخلص لوجهه عملى .

إنه نعم المولى ونعم النصير

وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

دكتـــور

أحمد رمضان مصطفى دياب

مدرس التفسير وعلوم القرآن

تمهيد بين يدى السورة

يحسن بنا قبل الشروع فى دراسة تلك السورة أن نتعرف عليها من خلال هذا التمهيد. انطلاقاً من أن التقديم لدراسة السورة - أو أىّ سورة - بهذه الأمور يزيد فى وضوح معناها ، ويرسم فى ذهن القارئ - أو السامع - صورة متكاملة لها .

وقد جاء هذا التمهيد مشتملاً على نقاط عدة ، أذكرها بإيجاز ، والله الموفق .

أولاً : ترتيب السورة :

سورة العصر هى السورة الثالثة بعد المائة فى ترتيب المصحف الشريف ، وقعت فيه بعد سورة التكاثر وقبل سورة الهُمَزة .

ثانياً : زمان نزول السورة :

سورة العصر مكية بتمامها فى قول الجمهور ، وهو مروى عن ابن عباس وابن الزبير رضى الله عنهم أجمعين .

وروى عن مجاهد وقتادة ومقاتل - وفى رواية لابن عباس - أنها مدنية [١].

والقول بمكيتها هو ما عليه جمهور المفسرين وعلماء علوم القرآن الكريم ، وهو الراجح المُعَوَّل عليه ، لذا لم يذكرها السيوطى - فى الإتقان - فى عِداد السور المختلف فيها ، بل ذكرها فى عِداد السور المتفق على مكيتها [٢].

ثالثاً : عدد آيات السورة :

عدد آيات هذه السورة المباركة ثلاث آيات باتفاق العادِّين ، فلا خلاف فى عدد آياتها جملة ، وإن كان قد وقع الخلاف فى عدد آياتها تفصيلاً ، لذا ذكرها صاحب الإتقان فى القسم المختلف فى عدد آياته تفصيلاً لا إجمالاً ، قال رحمه الله : " العصر ثلاث ، عَدَّ المدنى الأخير " وتواصوا بالحق " دون " والعصر " ، وعكس الباقون "[٣]،أ.هـ . وهذه السورة إحدى سور ثلاث هُن أقصر سور القرآن من حيث عدد الآيات ، هى وسورة الكوثر وسورة النصر .

---

(١) البحر المحيط ٥٣٨/١٠ ، روح المعانى ٤٠٩/٣٠ ، حاشية الصاوى ٢٩٧/٤ . التحرير والتنوير ٥٢٧/٣٠ .

(٢) راجع الإتقان ٢٥/١ وما بعدها .

(٣) الإتقان ١٩٠/١ ، إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربعة عشر ، صفحة ٥٩٨ .

رابعاً : تسمية السورة :

هذه السورة الكريمة تُسمى سورة "**العصر**" ، لورود هذا اللفظ فى أولها ، وفى بعض كتب التفسير والحديث سُمِّيت سورة "**والعصر**" ، بإثبات الواو ، على سبيل الحكاية[١] ، وليس للسورة اسم غير هذا الاسم .

ولعل سرَّ التسمية بهذا الاسم – العصر – يتضح من بيان وجه الصلة بين اسم السورة والغرض الذى سيقت من أجله .

فوجه الصلة بين هذا الاسم ومضمون السورة واضح جداً ، حيث إن مقصود السورة رسم طريق الفلاح ، وتوضيح سبيل النجاة ، وتفضيل نوع الإنسان المخلوق من علق ، وبيان خلاصته وعصارته ، وهم الحزب الناجى – أعنى أهل الفلاح – بعد الإشارة إلى أضدادهم – أعنى أهل الخسران – مع إعلام السورة بما ينجى من الأعمال والأحوال .

واسم السورة – العصر – واضح فى ذلك ، فإن العصر يُخلص روح المعصور ويميز صفاوته ، ولذلك كان وقت هذا النبى الخاتم ﷺ – الذى هو خلاصة الخلق – وقت العصر ، وكانت صلاة العصر أفضل الصلوات ، والله أعلم [٢].

خامساً : مناسبة السورة لما قبلها :

إن القارئ المتدبر لسورتى التكاثر والعصر يلحظ بينهما ارتباطاً وثيقاً ، أظهره العلامة البقاعى – رحمه الله – حين قال :

لما كانت لذة هذه الدنيا الظاهرة التنعم بما فيها من المتاع ، وكان الإنسان مسئولاً بما شهد به ، ختم التكاثر عن ذلك النعيم متوعداً برؤية الجحيم ، فكان ساكن هذه الدار على غاية الخطر فكان نعيمه فى غاية الكدر ، قال دالاً على ذلك بأن أكثر الناس هالك ، مؤكداً بالقسم والأداة ، لما للأغلب من التكذيب لذلك إما بالمقال أو بالحال.

---

(١) أعنى حكاية أول كلمة فيها ، أى سورة هذه الكلمة "**والعصر**" .

(٢) نظم الدرر ٥٢١/٨ بتصرف .

وقال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير : لمَّا قال تعالى : ﴿ **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ** ﴾ وتضمن ذلك الإشارة إلى قصور نظر الإنسان ، وحصر إدراكه فى العاجل دون الآجل ، الذى فيه فوزه وفلاحه ، وذلك لبعده عن العلم بموجب الطبع – " إنه كان ظلوما جهولاً"[١] – أخبر سبحانه أن ذلك شأن الإنسان بما هو إنسان ، فقال : ﴿ **وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ** ﴾ ، فالقصور شأنه ، والظلم طبعه ، والجهل جبلته ، فيحق أن يلهيه التكاثر، ولا يُدخل الله عليه روح الإيمان ، "**إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... إلى آخرها**، فهؤلاء الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، أ. هـ . [٢]

سادساً : المحتوى الفكرى للسورة :

يُمكن القول بأن غرض السورة الأساسى هو توضيح المنهاج الإسلامى للحياة البشرية ، يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله :

"فى هذه السورة الصغيرة ، ذات الآيات الثلاث ، يتمثل منهج كامل للحياة البشرية كما يريدها الإسلام ، وتبرز معالم التصور الإيمانى بحقيقته الكبيرة الشاملة فى أوضح وأدق صورة ، إنها تضع الدستور الإسلامى كله فى كلمات قصار ، وتصف الأمة الإسلامية : حقيقتها ووظيفتها فى آية واحدة ، هى الآية الثالثة من السورة. وهذا هو الإعجاز الذى لا يقدر عليه إلا الله .

والحقيقة الضخمة التى تقررها هذه السورة بمجموعها هى هذه :

إنه على امتداد الزمان فى جميع الأعصار ، وامتداد الإنسان فى جميع الأدهار، ليس هناك إلا منهج واحد رابح ، وطريق واحد ناج ، هو ذلك المنهج الذى ترسم السورة حدوده ، وهو هذا الطريق الذى تصف السورة معالمه ، وكل ما وراء ذلك ضياع وخسار ..أ.هـ.[٣]

وبعد هذا التمهيد ، وقبل التحدث فى فقه السورة أريد إن ألقى الضوء –باختصار– على معنى آيات السورة ، فأقول وبالله التوفيق :

---

(١) آخر الآية ٧٢ من سورة الأحزاب .

(٢) نظم الدرر ٥٢٢/٨ ، ٥٢٣.

(٣) فى ظلال القرآن ٣٩٦٤/٣٠ .

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ **وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ .

قوله تعالى : " **والعصر** " .

الواو للقسم ، وهو نوع من أنواع الإنشاء ، فائدته تأكيد الخبر وتحقيقه عند السامع ، والمُقسَم به " العصر " ، وهو لفظ مفرد يُطلق فى اللغة على عدة معانٍ ، فيطلق ويراد به الدهر. والعصران : الليل والنهار ، والعصران : الغداة والعشى ، ويطلق ويراد به آخر طرفى النهار ، قيل : هو العشى إلى احمرار الشمس ، وصلاة العصر مضافة إلى ذلك الوقت ، وبه سُميت ، كما يطلق على الفترة الزمنية المعلومة، ويُعين حينئذ بالإضافة ، فيقال مثلاً : عصر إبراهيم ، عصر الإسلام ، عصر الجاهلية، عصر الفراعنة ... الخ. وقد يطلق العصر ويراد به غير هذه المعانى[١].

وقد اختلف أهل التفسير فى المراد بالعصر فى الآية الكريمة .

فمنهم من قال : أراد بالعصر صلاة العصر ، ومنهم من قال : أراد بالعصر آخر طرفى النهار ، وهو العشى ، ومنهم من قال : أراد به الدهر أو الزمان أو الليل والنهار ، وقيل : أراد به زمان الرسول ﷺ خاصة ، وقيل : أراد به زمان الرسول ﷺ وزمان أمته [٢].

وبالنظر إلى هذه الأقوال نجد إن أيّاً منها لا يستند إلى دليل قوى يُعول عليه ، أو يترجح به على غيره ، ثم إنه لا مانع من القول بعموم اللفظ ليشمل ذلك كله ، فالأولى حمل اللفظ على العموم .

يقول الطبرى : ولم يخصص مما شمله هذا الاسم معنى دون معنى ، فكل ما لزمه هذا الاسم فداخل فيما أقسم به جل ثناؤه ، أ.هـ [٣].

ويقول النحاس : ويدخل فيه كل ما يسمى بالعصر ، لأنه لم يقع اختصاص تقوم به حجة ، أ.هـ [٤].

---

(١) راجع: الصحاح١/٦٠٧ وما بعدها، لسان العرب ٤/٥٧٥ وما بعدها، المفردات: ٣٣٦مادة عصر.

(٢) راجع هذه الأقوال فى كتب التفسير ، وعلى رأسها : تفسير الخازن ٤/٤٦٦ .

(٣) جامع البيان ٣٠/٢٩٠ .

(٤) إعراب القرآن ٥/٢٨٦ .

قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ** ﴾ .

هذا جواب القسم ، والتعريف – الألف واللام – فى " الإنسان " يحتمل أن يكون للجنس ، فيكون المراد به جنس الإنسان ، كما يحتمل أن يكون للعهد ، والمراد به جماعة من الكفار ، على ما قال ابن عباس رضى الله عنهما.

والأول أولى لعموم اللفظ – الإنسان – ولدلالة الاستثناء عليه [١].

والخسر – كالخسران – مصدر ضد الربح ، يُنسب إلى الإنسان حقيقة ، وإلى الفعل مجازاً [٢].

والظرفية فى " لفى خسر " مجازية ، ومجئ هذا الخبر على العموم مع تأكيده يفيد التهويل.

والتنكير فى " خُسر " للتعظيم والتعميم فى مقام التهويل ، ويجوز أن يكون للتنويع [٣].

وقد اختلف العلماء فى معنى الخسر ، فقال الأخفش : لفى هلكة ، وقال الفراء : لفى عقوبة ، وقال ابن زيد : لفى شر ، وقيل : لفى نقص ، وقيل : لفى غَبْن ، وقيل : لفى ضلال ، والمعنى متقارب [٤].

قوله تعالى : " **إلا اللذين آمنوا وعملوا الصالحات** " .

استثناء من " الإنسان " ، وهو متصل إذا كان التعريف فى " الإنسان " للجنس ، ومنقطع إذا كان للعهد ، والأول أظهر .

والإيمان ضد الكفر ، وقد اتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم على أن الإيمان فى اللغة معناه : التصديق ، وضده التكذيب ، ومنه قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف

---

(١) تفسير الخازن ٤/٤٦٦ ، التفسير الكبير ٣٢/٨٢ ، التحرير والتنوير ٣٠/٥٣١ بتصرف .

(٢) لسان العرب ٤/٢٣٩ ، أساس البلاغة ١/٢٤٦ مادة خسر بتصرف .

(٣) التفسير الكبير ٣٢/٨٢ ، السراج المنير ٤/٦٨٠ ، التحرير والتنوير ٣٠/٥٣١ .

(٤) تفسير القرطبى ٢٠/١٢٣ ، فتح القدير ٥/٤٩١ .

﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [١] ، فلم يختلف أهل التفسير فى أن معناه : ما أنت بمصدق لنا [٢].

ولكن اختلف أهل العلم فى حقيقة الإيمان والإسلام ، وعمومهما وخصوصهما، وهل الإيمان يزيد وينقص أم لا ، وهل الأعمال من الإيمان أم لا ، وهذه المسائل مبسوطة فى علم الكلام ، فيرجع إليها فى كتب التوحيد ، حتى لا يطول المقام بذكرها.

على أنه بقدر ما اهتم الأولون بتقرير الخلاف فى تلك القضية ، بقدر ما مال بعض المعاصرين إلى عدم إثارة الموضوع بجملته ، وعدم التعرض له أصلاً ، ومن هؤلاء الشهيد سيد قطب – رحمه الله – حيث يقول :

"هنا تعرض قضية الإيمان يزيد وينقص ، وهى قضية من قضايا الفرق وقضايا علم الكلام فى فترة الترف العقلى ، والفراغ من الاهتمامات العملية الجادة ، فلا ندخل الآن فيها " أ.هـ [٣].

و " عملوا الصالحات " معطوف على " آمنوا " ، والتعريف – الألف واللام – فى " الصالحات " للجنس ، مراد به الاستغراق ، أى عملوا جميع الأعمال الصالحة التى أمرهم الشرع بعملها ، وعمل الصالحات يشمل ترك السيئات [٤].

قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

معطوفان على ما قبلهما من عطف الخاص على العام للمبالغة ، والاهتمام به والاعتناء بشأنه ، وكأن فى ذلك إشارة صريحة إلى أن العمل الصالح ليس قاصراً على ما أثره عمل المرء فى خاصته ، وإنما دعوة الإنسان غيره إلى الحق وإرشاده إليه ، وصبره عليه ، من أفضل الأعمال الصالحة .

وكذلك عطف التواصى بالصبر على التواصى بالحق. من عطف الخاص على العام كسابقة.

وكرر الفعل –تواصوا– لاختلاف المفعولين[٥]،ومعناه : يُوصِى بعضهم بعضاً.

---

(١) آخر الآية ١٧ من سورة يوسف .

(٢) لسان العرب ٢١/١٣ مادة أمن .

(٣) هامش فى ظلال القرآن ١٤٧٥/٣ .

(٤) التحرير والتنوير ٥٣٢/٣٠ .

(٥) الفتوحات الإلهية ٥٨٣/٤ ، حاشية الصاوى ٢٩٨/٤ .

وأصل الحق : المطابقة والموافقة ، ومعناه : الأمر الثابت الذى لا يسوغ إنكاره، أو هو ما تقرر من حقيقة ثابتة .

ولقد تعددت أقوال العلماء فى المراد به فى الآية .

فعن ابن عباس والضحاك أنه الإيمان والتوحيد ، وعن قتادة والحسن أنه القرآن الكريم ، وعن السُّدى أنه الحق تبارك وتعالى[١] ، وقيل : هو محمد رسول الله ﷺ .

والمراد به على الأول : الثبات والدوام عليه ، وعلى الثانى : العمل بما فيه ، وعلى الثالث والرابع : امتثال أمرهما واجتناب نهيهما .

أقول : لا دلالة على التخصيص ، والحمل على العموم أولى .

فالحق : كل ما يحق القيام به ، وعبارة الزمخشرى : هو – يعنى الحق – الخير كله ، من توحيد الله وطاعته ، واتباع كتبه ورسله ، والزهد فى الدنيا ، والرغبة فى الآخرة [٢].

وأما الصبر فمعناه فى اللغة : الحبس والمنع ، وحقيقته : منع النفس من تحصيل ما تشتهيه أو محاولة تحصيله .

وقيل : الصبر ثبات باعث العقل والدين فى مقابلة باعث الهوى والشهوة ، ومعنى ذلك أن الطبع يقتضى ما يحب ، وباعث العقل والدين يمنع منه ، والحرب سجال بينهما .

والصبر ينقسم – باعتبار مُتَعَلَّقه – إلى أقسام ثلاثة :

١- صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها .

٢- صبر عن المعاصى والمخالفات حتى لا يقع فيها .

٣- صبر على البلاء والأقدار حتى لا يتسخطها .

وهذه الأنواع الثلاثة هى التى قيل فيها : لا بد للعبد من أمر يفعله ، ونهى يجتنبه ، وقدر يصبر عليه [٣].

---

(١) جامع البيان ٢٩٠/٣٠ ، تفسير القرطبى ١٢٣/٢٠ .

(٢) الكشاف ٧٨٧/٤ .

(٣) عدة الصابرين : صفحة ١٥ وما بعدها بتصرف .

وهكذا نلحظ أن الحق تبارك وتعالى حكم على جنس الإنسان بالخسر ، واستثنى من جنس الخاسرين من اتصف بصفات أربع : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر .

فهؤلاء فى تجارة لن تبور ، حيث باعوا الفانى الخسيس واشتروا الباقى النفيس، واستبدلوا الباقيات الصالحات بالغاديات الرائحات ، فيالها من صفقة ما أرباحها ، ومنفعة جامعة للخير ما أوضحها [1].

نسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا الإخلاص فى القول والعمل .

وأن يجعلنا من عباده الصالحين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

ولله الحمد فى الأولى والآخرة

****

فقه السورة :

المتأمل فى سورة العصر المباركة – على قِصرها – سوف يلفت نظره فيها دروس وعبر كثيرة ، يجب عليه أن يتوقف عندها فى محاولة لفهمها وتطبيقها والاستفادة منها فى الواقع المعاصر .

فما هو فقه تلك السورة الكريمة ، وما هى الدروس المستفادة منها ؟

وللإجابة عن ذلك نقول وبالله التوفيق :

إن هذه السورة العظيمة فى مجملها ومجالها تعطى للمسلم دروساً وعبراً كثيرة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر :

أولاً : منهج الربح وطريق النجاة .

لقد جاءت تلك السورة الكريمة لتؤكد حتمية الخسران لجنس الإنسان ، إلا من استثناهم الحق تبارك وتعالى ، وبهذا الاستثناء حددت السورة منهج الربح ، ورسمت طريق النجاة ، وتلك هى الحقيقة الضخمة التى قررتها السورة بمجموعها ، كما يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله ، إنه على امتداد الزمان فى جميع الأعصار ، وامتداد

(١) إرشاد العقل السليم ٩٠١/٥ ، روح المعانى ٤١١/٣٠ .

الإنسان فى جميع الأدهار ، ليس هنالك إلا منهج واحد رابح ، وطريق واحد ناج ، هو ذلك المنهج الذى ترسم السورة حدوده ، وهو هذا الطريق الذى تصف السورة معالمه ، وكل ما وراء ذلك ضياع وخسار .

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ * ﴾.

إنه الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر .

فأول شروط النجاة : الإيمان الصحيح الصادق ، الناتج عن سلامة العقيدة ، وتلك هى قضية الخلق الأولى ، وقضية الوجود المصيرية ، التى بعث الله عز وجل من أجلها جميع الرسل ، ولهذا كان النداء الأول فى كل رسالة : " يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره " .

لأن الإيمان هو بداية النجاة من خسر الدنيا والآخرة ، ولكن أى إيمان؟

إنه الإيمان القائم على التوحيد الذى بعث الله به كل الرسل ، وأنزل به كل الكتب .

إنه الإيمان الذى يوحى بالتعبد لإله واحد ، فيرتفع به الإنسان عن العبودية لسواه ، ويقيم فى نفسه المساواة مع جميع العباد ، فلا يذل لأحد ، ولا يحنى رأسه لغير الله الواحد القهار :

إنه الإيمان الذى يصل الإنسان بالربانية ، التى تحدد الجهة التى يتلقى منها الإنسان تعاليمه وقيمه وموازينه واعتباراته وقوانينه وشرائعه ، وكل ما يربطه بالله تعالى ، أو بالوجود ، أو بالناس ، فينتفى من الحياة الهوى والمصلحة ، وتحل محلها الشريعة والعدالة .

إنه الإيمان الذى يوضح الصلة بين الخالق والمخلوق ، ويبين مقام الألوهية ومقام العبودية على حقيقتها الناصعة ، مما يصل هذه الخليقة الفانية بالحقيقة الباقية فى غير تعقيد ، وبلا وساطة فى الطريق ، ويودع القلب نوراً ، والروح طمأنينة ، والنفس أنساً وثقة ، وينفى التردد والخوف والقلق والاضطراب ، كما ينفى الاستكبار فى الأرض بغير الحق ، والاستعلاء على العباد بالباطل والافتراء .

إنه الإيمان الذى يعنى استقامة الإنسان على المنهج الذى يريده الله عز وجل ، فلا يكون الخير فلتة عارضة ، ولا نزوة طارئة، ولا حادثة منقطعة ، إنما ينبعث عن دوافع ، ويتجه إلى هدف ، ويتعاون عليه الأفراد المرتبطون فى الله تعالى ، فتقوم الجماعة المسلمة ذات الهدف الواحد الواضح ، والراية الواحدة المتميزة ، كما تتضامن الأجيال المتعاقبة الموصولة بهذا الحبل المتين .

إنه الإيمان الذى يرتفع به الإنسان عن التكالب على أعراض الحياة الدنيا ، واختيار ما عند الله ، وهو خير وأبقى .

إنه الإيمان . أصل الحياة الكبير ، الذى ينبثق منه كل فرع من فروع الخير ، وتتعلق به كل ثمرة من ثماره ، وإلا فهو فرع مقطوع من شجرته ، صائر إلى ذبول وجفاف ، وإلا فهى ثمرة شيطانية ، وليس لها امتداد أو دوام .

إنه الإيمان . المحور الذى تشد إليه جميع خيوط الحياة الرفيعة ، وهو المنهج الذى يضم شتات الأعمال .

ذلك عالم الإيمان ، الذى تبدو إلى جانبه عوالم غير المؤمنين صغيرة ضئيلة ، هابطة هزيلة شقية ... خاسرة أى خسران ! (١)

وذلك هو الإيمان الذى ينجى صاحبه ، ويخرجه من عداد الخاسرين ، ويدخله فى عداد الفائزين المفلحين .

وذلك هو الإيمان . الشرط الأول من شروط النجاة .

أما الشرط الثانى من شروط النجاة فهو " العمل الصالح " .

والعمل الصالح هو الثمرة الطبيعية للإيمان الصادق ، فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة ، ما إن تستقر فى الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها فى الخارج ، فى صورة عمل صالح .

الإيمان الصادق هو الذى يثمر العمل الصالح ، فإن لم يثمر عملاً صالحاً فهو إيمان مزيف أو ميت أو مخدر ، شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها (٢).

---

(١) فى ظلال القرآن ٣٩٦٤/٦ وما بعدها بتصرف .

(٢) المرجع السابق ، والأرَجُ والأرِيجُ : توهُج ريح الطيب ، تقول : أرِجَ الطِيبُ – بالكسر – يَأرَجُ أرَجاً وأرِيجاً . إذا فاح . الصحاح ٢٧٩/١ مادة أرج .

ولذلك قيل : إيمان بلا عمل كشجر بلا ثمر ، أو سحاب بلا مطر .

ولكن أى عمل ؟

إنه عمل الصالحات ، وهو تعبير قرآنى جامع لكل أنواع الخير .

أما الشرط الثالث من شروط النجاة فهو " التواصى بالحق " .

والتواصى بالحق من ضروريات الإيمان ، لأن النهوض بالحق عسير ، والمعوقات عن الحق كثيرة : هوى النفس ، ومنطق المصلحة ، وتصورات البيئة ، وطغيان الطغاة ، وظلم الظلمة ، وجور الجائرين ، وما شابه ذلك .

والتواصى تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى فى الهدف والغاية ، والأخوة فى العبء والأمانة ، فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية ، إذ تتفاعل معاً فتتضاعف.

تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ، ويقف معه، ويحبه ولا يخذله .. وهذا هو الدين – وهو الحق – لا يقوم إلا فى حراسة جماعة متعاونة متواصية متكافلة متضامنة على هذا المثال (١).

وأما الشرط الرابع من شروط النجاة فهو " التواصى بالصبر ".

والتواصى بالصبر كذلك ضرورة ، فالقيام على الإيمان والعمل الصالح، وحراسة الحق والعدل . من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة، ولا بد من الصبر، لابد من الصبر على جهاد النفس، وجهاد الغير، والصبر على الأذى والمشقة، والصبر على تبجح الباطل، والصبر على طول الطريق وبطء المراحل ، وانطماس المعالم، وبُعد النهاية ...

والتواصى بالصبر يضاعف المقدرة ، بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف ، ووحدة المتجه ، وتساند الجميع ، وتزودهم بالحب والعزم والإصرار ... إلى آخر ما يثيره من معانى الجماعة التى لا تعيش حقيقة الإسلام إلا فى جوها ، ولا تبرز إلا من خلالها .. وإلا فهو الخسران والضياع (٢).

---

(١) فى ظلال القرآن ٣٩٦٨/٦ .

(٢) المرجع السابق .

يقول شهيد الإسلام سيد قطب رحمه الله :

وننظر اليوم من خلال هذا الدستور الذى يرسمه القرآن لحياة الفئة الرابحة الناجية من الخسران ، فيهولنا أن نرى الخسر يحيق بالبشرية فى كل مكان على ظهر الأرض بلا استثناء .

يهولنا هذا الضياع الذى تعانيه البشرية فى الدنيا – قبل الآخرة– ، يهولنا أن نرى إعراض البشرية – ذلك الإعراض البائس – عن الخير الذى أفاضه الله عليها ، مع فقدان السلطة الخيرة المؤمنة القائمة على الحق فى هذه الأرض..

هذا والمسلمون – أو أصحاب دعوى الإسلام بتعبير أدق – هم أبعد أهل الأرض عن هذا الخير ، وأشدهم إعراضاً عن المنهج الإلهى الذى اختاره الله لهم ، وعن الدستور الذى شرعه لأمتهم ، وعن الطريق الوحيد الذى رسمه للنجاة من الخسران والضياع.

والبقاع التى انبعث منها هذا الخير أول مرة تترك الراية التى رفعها لها الله –راية الإيمان – لتتعلق برايات عنصرية ، لم تنل تحتها خيراً قط فى تاريخها كله ، لم يكن لها تحتها ذكر فى الأرض ولا فى السماء .

حتى جاء الإسلام فرفع لها هذه الراية المنتسبة لله ، لا شريك له . المسماة باسم الله لا شريك له ، الموسومة بميسم الله لا شريك له .. الراية التى انتصر العرب تحتها، وسادوا وقادوا البشرية قيادة خيرية قوية واعية ، ناجية لأول مرة فى تاريخهم، وفى تاريخ البشرية الطويل ... (١)

ثم ذكر رحمه الله بعض ملامح الحقبة السعيدة التى عاشتها البشرية فى ظل الدستور الإسلامى الذى تضع سورة العصر قواعده ، وتحت تلك الراية الإيمانية التى تحملها جماعة الإيمان والعمل الصالح والتواصى بالحق والتواصى بالصبر ... ثم قال رحمه الله :

فأين منها هذا الضياع الذى تعانيه البشرية اليوم فى كل مكان ، والخسار الذى تبوء به فى معركة الخير والشر ، والعماء عن ذلك الخير الكبير الذى حملته الأمة العربية للبشر يوم حملت راية الإسلام ، فكانت لها القيادة ، ثم وضعت هذه الراية فإذا

(١) فى ظلال القرآن ٣٩٦٨/٦ .

هى فى ذيل القافلة ، وإذا القافلة كلها تعطو إلى الضياع والخسار ، وإذا الرايات كلها بعد ذلك للشيطان ، ليس فيها راية واحدة لله ، وإذا هى كلها للباطل ، ليس فيها راية واحدة للحق ، وإذا هى كلها للعماء والضلال ، ليس فيها راية واحدة للهدى والنور ، وإذا هى كلها للخسار ، ليس فيها راية واحدة للفلاح !

وراية الله ما تزال . وإنها لترتقب اليد التى ترفعها ، والأمة التى تسير تحتها إلى الخير والهدى والصلاح والفلاح .

ذلك شأن الربح والخسر فى هذه الأرض ، وهو على عظمته إذا قيس بشأن الآخرة صغير .

وهناك .. هناك الربح الحق والخسر الحق ، هناك فى الأمد الطويل ، وفى الحياة الباقية ، وفى عالم الحقيقة ... هناك الربح والخسر :

ربح الجنة والرضوان ، أو خسر الجنة والرضوان .

وهذه السورة حاسمة فى تحديد الطريق .. إنه الخسر " " إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر " ..

طريق واحد لا يتعدد ، طريق الإيمان والعمل الصالح وقيام الجماعة المسلمة ، التى تتواصى بالحق وتتواصى بالصبر ، وتقوم متضامنة على حراسة الحق ، مزودة بزاد الصبر " أ.هـ (١).

وهو كلام طيب ، ما أحوجنا إلى تفهمه ، فجزى الله صاحبه خير الجزاء .

ثانياً : قيمة الوقت فى حياة المسلم :

فى قسم الله تعالى بالعصر إشارة واضحة إلى شرف الوقت وفضله ، وتنويه بشأنه ، وإنه لجدير بالمسلم العاقل أن يتنبه لقيمة الوقت فى حياته الدنيا ، فيحاسب نفسه على ما قدم فى يومه ، وما حصل فيه من خير ، وما اقترف فيه من إثم .

لأن الوقت هو رأس مال الإنسان ، فلا يستسهل الإنسان ضياع وقته ، لأن العمر قصير ، واللحظات محسوبة على الإنسان ، واللحظة التى تمضى من عمر

(١) فى ظلال القرآن ٣٩٧٠/٦ وما بعدها.

الإنسان لن تعود مرة أخرى ، ولن يعرف الإنسان قيمتها إلا فى يوم الحساب ، بعد أن تنقضى أيامه ، ويجد نفسه فى موقف السؤال عن كل لحظة قضاها فى هذه الحياة الدنيا. فيُسأل عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه .

لذلك حذر النبى ﷺ أمته من ضياع الوقت ، فقال ﷺ :

" **نعمتان مَغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ** " (١).

قال الطيبى رحمه الله :

ضرب النبى ﷺ للمكلف مثلاً بالتاجر الذى له رأس مال ، فهو يبتغى الربح مع سلامة رأس المال ، فطريقه فى ذلك أن يتحرى فيمن يعامله ، ويلزم الصدق والحذق لئلا يُغبن . فالصحة والفراغ رأس المال ، وينبغى له أن يعامل الله بالإيمان ، ومجاهدة النفس وعدو الدين ، ليربح خيرى الدنيا والآخرة ، وعليه أن يجتنب مطاوعة النفس ومعاملة الشيطان ، لئلا يضيع رأس ماله مع الربح (٢).

فاحذر أخى الكريم ضياع الوقت ، فالوقت من ذهب كما يقولون ، وتدبر قول القائل : " **الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك** " .

إن لم تقطعه بالأعمال الصالحة واغتنام الفرصة قبل فوات الأوان . قطعك هو بضياعه منك ، أو بشغلك ، أو بذهاب الفرص التى قد لا تتعوض مرة أخرى .

وتذكر دائماً قول النبى ﷺ :

" **بادروا بالأعمال فِتَناً كقطع الليل المظلم . يصبح الرجل مؤمناً ويُمسى كافراً. أو يُمسى مؤمناً ويصبح كافراً . يبيع دينه بِعَرَضٍ من الدنيا** " (٣).

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق ، باب ما جاء فى الرقاق ، برقم ٦٤١٢ ، صحيح البخارى بشرحه فتح البارى ٢٣٣/١١ ، وأخرجه الترمذى فى كتاب الزهد ، باب الصحة والفراغ مغبون فيهما كثير من الناس ، برقم ٢٣١١ ، سننه ١٣٦/٤ .

(٢) ذكره ابن حجر فى فتح البارى ٢٣٤/١١ .

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان ، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن ، برقم ١١٨، صحيح مسلم بشرح النووى ٤١٠/١ ، وأخرجه الترمذى فى كتاب الفتن ، باب ما جاء ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، برقم ٢٢٠٢ ، سننه ٨٤/٤ .

قال النووى رحمه الله :

معنى الحديث : الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها ، والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة ، كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر (١).

وتذكر دائما وصية النبى ﷺ لرجل وهو يعظه :

" **اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك** " (٢).

وإنى لأعجب من أناس يحسنون فن تضييع الوقت ، وكأن الوقت عدوهم الذى يجب عليهم أن يقضوا عليه أو يتخلصوا منه ، وتسمع فى ذلك العبارات الشيطانية ، كقولهم : تعالى نقتل الوقت ، تعالى نضيع وقتنا ، وما شابه ذلك .

ويغفل هذا المسكين – أو يتغافل – عن أن الواجبات أكثر من الأوقات ، وأنه مأمور بحفظ الوقت والانتفاع به ، ولكنه تحقق فيه قول القائل :

والوقت أنفس ما عنيت بحفظه وأراه أسهل ما عليك يضيع ..

فليغتنم العاقل وقته ، وليقدم لنفسه فى الحياة الدنيا ما ينفعه فى الحياة الآخرة ، وليحرص دائما أن يترك له أثراً صالحاً فى حياته الأولى ، وليتأمل قول القائل :

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان

فاعمل لنفسك قبل موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثانٍ

ثالثاً : رحمة الله بعباده :

جاءت سورة العصر لتنقذ الإنسان من الخسران الحتمى ، إلى الفوز والربح والفلاح المحقق ، وذلك من خلال هذا المنهج الربانى الذى وضعه الله عز وجل لعباده، ليجتنبوا الخسر ويحققوا الربح والفلاح .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ٤١٠/١ .

(٢) أخرجه الحاكم فى كتاب الرقاق ، برقم ٣٨٤٦ ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى فى التلخيص ، المستدرك ٣٤١/٤ .

وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على رحمة الله تعالى بعباده ، حيث يرشدهم إلى ما فيه فلاحهم ، ويحذرهم مما فيه الخسران المبين .

فالله عز وجل أرحم بعبده من الأم بولدها ، مصداق ذلك في الحديث المتفق عليه، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : **قُدِم على النبى ﷺ سَبى ، فإذا امرأة من السَّبْى تحلب ثديها تسقى إذا وجدت صبياً فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته . فقال النبى ﷺ : " أترون هذه طارحة ولدها فى النار ؟. قلنا : لا ، وهى تقدر على أن لا تطرحه . فقال - ﷺ- للَّهُ أرحم بعباده من هذه بولدها "**[1].

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يعمنا برحمته الواسعة فى الدنيا والآخرة .

رابعاً : الإيمان والعمل الصالح صنوان لا يفترقان .

سبق القول بأن العمل الصالح هو الثمرة الطبيعية للإيمان ، وأن الإيمان بلا عمل كشجر بلا ثمر ، أو سحاب بلا مطر .

هذا بالإضافة إلى أن العمل الصالح هو البرهان الوحيد على صدق الإيمان ، ولهذا جاء مقترناً به فى كثير من آيات القرآن الكريم ، فإذا قرأت القرآن تجد أن الإيمان ورد مقترناً بالعمل الصالح ومشفوعاً به فى أكثر من ستين موضعاً ، ومنها هذه السورة الكريمة ، " إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات " .

وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على أن الإيمان والعمل الصالح صنوان ، يجتمعان دائماً ولا يفترقان ، ولا غنى لأحدهما عن الآخر .

خامساً : دعوة القرآن إلى العمل الجماعى .

حينما تحدثت السورة الكريمة عن الإنسان الناجى ، تحدثت عنه بصيغ الجمع ، فقال تعالى :

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾

(١) أخرجه البخارى - واللفظ له - فى كتاب الأدب ، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ، برقم ٥٩٩٩ ، صحيح البخارى بشرحه فتح البارى ٤٤٠/١٠ ، وأخرجه مسلم فى كتاب التوبة ، باب فى سعة رحمة الله تعالى ، برقم ٢٧٥٤ ، صحيح مسلم بشرح النووى ٨١/٩ .

لاحظ معى - أخى الكريم - تلك الصيغ الجماعية : " الذين " ، " آمنوا " ، "عملوا " ، " تواصوا " ، لم تأت الآية بصيغ الإفراد : " الذى ، آمن ، عمل ، تواصى"، لكن جاءت فى كل ذلك بصيغ الجمع .

وهذا يرشدنا إلى أمر هام ، يتلخص فى أنه لا نجاة للفرد بمفرده ، بل لا بد له - إن أراد النجاة - أن يضع يده فى يد إخوانه من المسلمين ، يوادهم ويوادونه ، يرتبط بهم ويرتبطون به ، ينصح لهم وينصحون له ، فلا غناء عن التعاون والتآزر والعمل الجماعى ، لا يستطيع الإنسان أن يعمل وحده ، لأن تكاليف الإسلام أكبر من أن يتصدى لها إنسان بمفرده .

لذلك قال ﷺ : **"يد الله مع الجماعة ، ومن شذ شذ إلى النار "**[1] ، **وقال ﷺ : "من أراد بُحبُوحة الجنة فليلزم الجماعة"**[2]. وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية .

إن العمل الجماعى سنة كونية ، نراها فى هذا الكون الفسيح ، فكل مجموعة متجانسة تتعاون وتتآزر فيما بينها لتحقيق الهدف الذى خلقها الله من أجله .

والإنسان ليس بدعاً من هذه المخلوقات ، لكن حياته أيضاً تقوم على التعاون والتآزر والعمل الجماعى ، لا يستطيع الإنسان أن يعيش بمفرده ، ولذلك قيل :

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

وإذا كان هذا شأن الإنسان فى شئون الحياة الدنيا وهى فانية ، فأولى أن يكون ذلك فى شئون الحياة الآخرة ، فهى الباقية .

ونظرة إلى واقعنا المعاصر نجد أن العمل الجماعى أصبح ضرورة ملحة ، لمواجهة تحديات أعداء الإسلام .

فالعالم الإسلامى فى هذه الآونة يشهد حرباً شرسة ، لا تخفى على أحد ، وخاصة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ ميلادية الشهيرة ، التى اتخذها الأعداء ذريعة لمحاربة الإسلام ، تحت ستار : " القضاء على الإرهاب ".

(١) بعض حديث أخرجه الترمذى فى كتاب الفتن ، باب ما جاء فى لزوم الجماعات ، برقم ٢١٧٣ ، سننه ٦٨/٤ .

(٢) أخرجه الترمذى فى الموضع السابق ، برقم ٢١٧٢ .

إنهم يحاربون الإسلام فى صور جماعية ، وإن اختلفوا فيما بينهم ، لكنهم كما قيل : " تفرق جمعهم إلا علينا " .

فتراهم على الساحة فى أحلاف عسكرية ، كحلف وارسو – سابقاً – وحلف شمال الأطلنطى ، وحلف النيتو ، وغيرها .

وتارة تراهم فى شكل برلمانات وهيئات سياسية ، كالبرلمان الأوروبى ومجلس الأمن.

وتارة تراهم فى شكل أسواق تجارية ، كالسوق الأوروبية المشتركة وغير ذلك من المؤسسات الجماعية .

فقل لى – بالله عليك – هل يستطيع المسلم بمفرده أن يدفع كيد هؤلاء مجتمعين، أم أن الرد على هؤلاء يكون بالتزام الفرد جماعة المسلمين ، والعمل على نصرة دينه مع إخوانه .

وقد نبهنا الحق تبارك وتعالى إلى ذلك وأمرنا به حين قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿**وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً** ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ **وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ...** ﴾ (٣) .

إن الإسلام يريد أن يغرس فى نفس كل مسلم روح الجماعة ، يقف المسلم فى كل ركعة من ركعات الصلاة فيقرأ فى سورة الفاتحة قوله تعالى : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ..** ﴾ (٤) ، هكذا بصيغ الجمع ، حتى وإن صلى منفرداً فى قعر بيته خالياً لا يراه أحد ، إذا ناجى ربه ناجاه بلسان الجماعة ، وإذا سأل ربه يسأل للجماعة لا لنفسه ، يحشر نفسه فى زمرة الجماعة ، فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم ، والله أعلم ..

---

(١) الآية ٤ من سورة الصف .
(٢) من الآية ٣٦ من سورة التوبة .
(٣) أول الآية ٧١ من سورة التوبة .
(٤) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة الفاتحة .

سادساً : الدين النصيحة .

ويستفاد ذلك الدرس من قوله تعالى : ﴿ **وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ** ﴾ فقد جعل الله تبارك وتعالى التواصى بهما من أسباب الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة، وبدونه تحل الخسارة بالمجتمع الإسلامى ، والتواصى بالحق والصبر يعنى التناصح على التماسك بهما .

والتواصى والتناصح – كما يقول علماء العربية – صيغة تفاعل من الجانبين(١)، أى توصى غيرك وتقبل من غيرك أن يوصيك . وهذا الدرس يرشدنا إلى أن الإسلام حث على التناصح المتبادل بين أفراد الجماعة المؤمنة فى أجواء الإيمان .

فقوام الدين الإسلامى وعماده قائم على النصيحة ، فبها تُسدد الخطى ، ويتضح الطريق ، لذلك قال النبى ﷺ : " **الدين النصيحة . قلنا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم** " (٢).

فالتناصح بين المسلمين ضرورة إجتماعية ، وفريضة شرعية ، يؤكد وجوبها النقل والعقل ، فهى وظيفة الأنبياء والمرسلين ، وسبيلهم إلى الإصلاح والإرشاد ، فقد كان كل رسول يقول لقومه : " إنى لكم ناصح أمين " .

وهذا رسول الله ﷺ كان يستمع إلى النصيحة من أصحابه – مع ما يأتيه من الوحى – وقد يترك رأيه أحياناً وينزل على رأى أصحابه ، كما حدث فى خروجه يوم أحد لملاقاة المشركين ، وغير ذلك من الوقائع التى روتها كتب السيرة .

وعلى دربه صار الخلفاء ، فهذا هو الصدّيق رضى الله عنه يقول على المنبر فى أول خطبة له بعد توليته الخلافة :

" **أما بعد . أيها الناس : إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ....** " (٣).

---

(١) قال فى الصحاح ١٨٢٩/٢ مادة وصى : " وتواصى القوم : أوصى بعضهم بعضاً " أ.هـ .
(٢) أخرجه مسلم – عن تميم الدارى – فى كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة ، برقم ٥٥ ، صحيح مسلم بشرح النووى ٣١٣/١ ، وأخرجه أبو داود فى كتاب الأدب ، باب فى النصيحة ، برقم ٤٩٤٤ ، سننه ٢٨٨/٤ .
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى ، صفحة ٥٦ .

وكان الفاروق رضى الله عنه يقول : **مرحباً بالناصح أبد الدهر ، مرحباً بالناصح غدواً وعشياً** ، ولما نصحه أحد الناس وقال له : اتق الله يا عمر . غضب بعض من حوله وقال للناصح : اتقول هذا لأمير المؤمنين ! فقال عمر : **دعوه . لا خير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نسمعها .**

وبرغم أهمية النصيحة ، وحاجة الفرد والمجتمع إليها ، إلا أن كثيراً من الناس فى هذا العصر لا يعرفون حكم تلك الفريضة الإسلامية ، فهم لذلك ينظرون إلى النصيحة على أنها نافلة من النوافل ، أو فضل من عند أنفسهم .

ناهيك عن ذلك المرض الذى استشرى بين أفراد المجتمع الإسلامى فى واقعنا المعاصر ، ذلك المرض الذى يدعو إلى السلبية بدعاوى إبليسية ، فتسمع مثلاً :

دع الملك للمالك ، دع الخلق للخالق ، دع العباد لرب العباد ، إنك لن تصلح الكون ، أنا ومن بعدى الطوفان ... إلى غير ذلك .

كل ذلك مما يؤكد ويبين أن التناصح بين الناس أمر واجب على كل مسلم ومسلمة حسب استطاعته واستطاعتها ، والله عز وجل يهدينا إلى سواء السبيل ..

سابعاً : وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ففى قوله تعالى : " وتواصوا بالحق " إشارة صريحة إلى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ذلك القطب العظيم الذى غفل عنه المسلمون ، فوقعوا فيما وقعوا فيه .

يقول الإمام الغزالى رحمه الله فى أول كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، من كتابه النفيس : إحياء علوم الدين :

" ... فإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو القطب الأعظم فى الدين ، وهو المهم الذى ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوى بساطة ، وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمت الفترة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد ، وقد كان الذى خِفنا أن يكون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه ، وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه ، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق ، وانمحت عنها مراقبة الخالق ، واسترسل الناس فى اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم ، وعزّ على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه فى الله لومة لائم .

فمن سعى فى تلافى هذه الفترة ، وسدّ هذه الثلمة – إما متكفلاً بعملها ، أو متقلداً لتنفيذها ، مجدداً لهذه السنة الدائرة ، ناهضاً بأعبائها ، ومتشمراً فى إحيائها – كان مستأثراً من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها ، ومستبداً بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها [١].

والنصوص الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر – من القرآن والسنة والآثار – أكثر من أن تحصى فى هذا البحث الموجز ، وهى مشهورة ومتداولة بين العامة والخاصة .

ثامناً : الرفق واللين فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ويستفاد ذلك من اختيار السورة الكريمة للفظ الوصية ، فالإتيان بكلمة "التواصى" فيه إشارة بليغة إلى الرفق فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واستعمال اللين فيهما بغاية الجهد . وهذا مطلب شرعى ، وأدب إسلامى ، وخُلق دعوى ، يجب على الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر أن يتمسك به ، لما فيه من القرب إلى تحصيل المطلوب . لذلك جاءت دعوة الإسلام إلى الرفق صريحة محكمة ، فقال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : " **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ...** "[٢] .

وقال ﷺ : " **إن الله يحب الرفق فى الأمر كله** " [٣].

---

(١) إحياء علوم الدين ٣٣٣/٢ .

(٢) أول الآية ١٥٩ من سورة آل عمران .

(٣) متفق عليه من حديث السيدة عائشة رضى الله عنها أخرجه البخارى فى كتاب استتابة المرتدين ، باب إذا عرَّض الذمى أو غيره بسبب النبى ﷺ ، برقم ٦٩٢٧ ، صحيح البخارى بشرحه فتح البارى ٢٩٣/١٢ ، وأخرجه مسلم فى كتاب السلام ، باب النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام ، برقم ٢١٦٥ ، صحيح مسلم بشرح النووى ٣٩٩/٧ .

وقال ﷺ أيضاً : " **من يُحرم الرفق يُحرم الخير** " (١).

وعنه ﷺ أيضاً أنه قال : " **إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطى على الرفق ما لا يُعطى على العنف ، وما لا يعطى على ما سواه** " (٢).

وعنه ﷺ أنه قال أيضاً : " **إن الرفق لا يكون فى شئ إلا زانه ، ولا ينزع من شئ إلا شانه** " (٣).

قال النووى رحمه الله :

وفى هذه الأحاديث فضل الرفق ، والحث على التخلق ، وذم العنف ، والرفق سبب كل خير ، ومعنى يعطى على الرفق ، أى يثيب عليه ما لا يثيب على غيره ، وقال القاضى : معناه : يتأتى به من الأغراض ، ويسهل من المطالب ما لا يتأتى بغيره . أ.هـ (٤)

فعلى من يريد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . أن يتأدب بهذا الأدب الرفيع ، وأن يتخلق بهذا الخلق الكريم ، وأن يتأسى بسيرة الأنبياء والمرسلين ، وسلفنا الصالح رضى الله عنهم أجمعين ، وأن يتجنب الغلظة والفظاظة التى تغلق القلوب ، وتصم الآذان ، إن أراد الخير لنفسه ولمن يدعوه .

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الموطن ما استدل به المأمون – رحمه الله – إذ وعظه واعظ وعنّف له فى القول ، فقال المأمون لواعظه : يا رجل : ارفق ، فقد بعث الله من هو خير منك (٥) إلى من هو شر منى (٦) وأمره بالرفق ، فقال تعالى : ﴿ **فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ﴾ (٧) . والله أعلى وأعلم .

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب ، باب فضل الرفق ، برقم ٢٥٩٢.
صحيح مسلم بشرح النووى ٣٩٠/٨ .

(٢) أخرجه مسلم فى الموضع السابق برقم ٢٥٩٣ .

(٣) أخرجه مسلم فى نفس الموضع برقم ٢٥٩٤ .

(٤) المرجع السابق ٣٩١/٨ .

(٥) يعنى موسى وهارون عليهما السلام .

(٦) يعنى فرعون عليه اللعنة .

(٧) الآية ٤٤ من سورة طه .

تاسعاً : ملازمة البلاء للدعوات الصادقة .

يقول الإمام الرازى رحمه الله فى تفسير سورة العصر :

" دلت الآية – يعنى الأخيرة – على أن الحق ثقيل ، وأن المحن تلازمه ، فلذلك قرن به التواصى " (١).

أقول : إن اقتران التواصى بالصبر بالتواصى بالحق يرشدنا – فيما يرشد – إلى درس هام ، ينبغى علينا أن نفقهه جيداً ، هو أنه لا يوجد حق بغير بلاء ، فتكاليف الحق ثقيلة ، وطعمه مُرّ ، وطريقه محفوفة بالمكاره ، مليئة بالأشواك ، غير مفروشة بالورود والرياحين .. وهكذا الدعوات الصادقة ...

فالإبتلاء ضرورة لأصحاب الحق، ليميز الله الخبيث من الطيب ، يبتليهم الله بالمحن ليزكى نفوسهم ، ويُطهر أفئدتهم ، وهل يُزكى الذهب إلا بالنار ؟

وكذلك النفوس المؤمنة لا تُزكى إلا بالمحن والشدائد ، وصدق الله العظيم القائل: ﴿ **الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾ (٣) .

ولأن المحن تلازم الحق . فلا بد أن يكون الصبر هو زاد الذين يسلكون طريق الحق ويدعون إليه ، ويبلغون به غايات الفوز والفلاح .

لذلك نلحظ اقتران الصبر بدعوة الحق فى غير موضع من القرآن الكريم ، منها هذا الموضع " **وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** " ، ومنها ما حكاه القرآن على لسان لقمان لابنه وهو يعظه : ﴿ **يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴾(٤) ، وكأن البلاء مع دعوة الحق أمر طبيعى،

---

(١) يعنى قرن بالحق التواصى بالصبر ، وينظر : التفسير الكبير ٨٥/٣٢ .

(٢) أول سورة العنكبوت .

(٣) الآية ٢١٤ من سورة البقرة .

(٤) الآية ١٧ من سورة لقمان .

فطالما تمسك بالحق ودعا إليه . فلا بد أن يتعرض للأذى والابتلاء والمحن ، فعليه أن يُوطن نفسه على الصبر ، وأن يتحلى به فى سبيل دعوة الحق .

وتلحظ ذلك أيضاً فى الأوامر الإلهية التى صدرت لرسول الله ﷺ فى بداية الدعوة ، ومن أوائل ما نزل من القرآن الكريم ، حيث يقول الحق تبارك وتعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** ﴾ (١) .

لأنه ما دام على الحق ، ويدعو إليه ، فعليه أن يوطن نفسه على الأذى والبلاء، لأن الناس سينالونه بأذاهم ، لم ينج من هذا أحد حتى الأنبياء ، ولهذا قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ وأصحابه : " **لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور** " (٢).

ومن هنا جاءت الأوامر الشرعية بالصبر ، لأنه لا يمكن أن تقوم دعوة للحق بغير بلاء ومحن ، وزاد الداعية الصادق فى ذلك هو الصبر كما قلنا .

قال الإمام الغزالى رحمه الله :

أوصى بعض السلف بنيه فقال : إن أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف فليوطن نفسه على الصبر ، وليثق بالثواب من الله ، فمن وثق بالثواب من الله لم يجد مس الأذى (٣).

ولملازمة البلاء للدعوات الصادقة نراه يتفاوت من داعية لآخر فيُبتلى المرء على قدر دينه ، لذلك كان الأنبياء هم أشد الناس بلاءً ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم .

وقد ورد ذلك على لسان الرسول ﷺ ، فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : "**قلت يا رسول الله : أى الناس أشد بلاءً ؟ قال : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ،**

---

(١) أول سورة المدثر .

(٢) الآية ١٨٦ من سورة آل عمران .

(٣) إحياء علوم الدين ٣٦٢/٢ .

فيبتلى الرَّجُلُ على حسب دينه فإن كان فى دينه صُلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على قدر دينه " (١).

ولأن البلاء يتفاوت من داعية لآخر ، كان الجزاء على البلاء أيضا متفاوتاً ، فعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

" **إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضى فله الرِّضى ، ومن سَخِط فله السَّخَط** " (٢).

فالابتلاء إذاً سنة كونية من سنن الله فى خلقه ، لا سيما عباده الصالحين ، الذين رضوا به رباً وخالقاً ومعبوداً ، فإن الله تعالى يعرضهم للبلاء . وهو قليل بجانب نعمه الكثيرة عليهم التى لا تُعد ولا تحصى ، وذلك لاختبارهم ، أو لتزكية قلوبهم ، أو لرفع درجاتهم ، أو لتنبيههم فيما وقعوا فيه من الغفلة والتقصير ، أو لغير ذلك مما أراده الله تبارك وتعالى .

نسأل الله سبحانه العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدين والدنيا والآخرة ، وأن لا يؤاخذنا بذنوبنا ، إنه عفو غفور رحيم ....

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب الزهد ، باب ما جاء فى الصبر على البلاء ، برقم ٢٤٠٦ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، سننه ١٧٩/٤ ، وأخرجه ابن ماجة – عن سعد بن أبى وقاص – فى كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء ، برقم ٤٠٢٣ ، سننه ١٣٣٤/٢ ، وأخرجه – بنحوه – الحاكم فى كتاب الرقاق ، برقم ٧٨٤٨ ، وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى فى التلخيص ، المستدرك ٣٤٢/٤ .

وعند ابن ماجة عن أبى سعيد : " أشد الناس بلاء الأنبياء ، قلت يا رسول الله : ثم من ؟ قال : ثم الصالحون ... "

وعند الحاكم فى كتاب معرفة الصحابة ، برقم ٥٤٦٣ " أشد الناس بلاء الأنبياء ثم العلماء ثم الأمثل فالأمثل ... " ، المستدرك ٣٨٦/٣ .

وقد بوب البخارى الباب الثالث من كتاب المرضى بعنوان : " أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

(٢) أخرجه الترمذى – وحَسَّنه – فى كتاب الزهد ، باب ما جاء فى الصبر على البلاء. برقم ٢٤٠٤، سننه ١٧٨/٤.

وأخرجه ابن ماجة فى كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء ، برقم ٤٠٣١ ، سننه ١٣٣٨/٢ .

عاشراً : أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه .

لقد جعل الحق تبارك وتعالى – فى السورة – شروط النجاة من الخسر أربعة : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر .

وفى الشرطين الأولين تكميل الإنسان لنفسه ، وفى الأخيرين تكميله لغيره ، فكأنها إشارة صريحة إلى أن الإنسان بعد كماله فى نفسه بالإيمان والعمل الصالح ، لا ينتفى عنه مطلق الخسر إلا بتكميل غيره ، عن طريق التواصى بالحق والتواصى بالصبر .

وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على القاعدة الإيمانية العظيمة ، أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ، وذلك من مقتضيات الإيمان .

وفى ذلك يقول الرسول الكريم ﷺ :

" **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** " (١).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

والمراد بالنفى كمال الإيمان ، ومعناه : أن يحب أن يحصل لأخيه نظير ما يحصل له لا عينه ، سواء كان فى الأمور الحسية أو المعنوية ، وليس المراد أن يحصل لأخيه ما حصل له مع سلبه عنه ، ولا مع بقائه بعينه له . أ. هـ (٢).

وقال النووى رحمه الله :

قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح : " وهذا قد يُعد من الصعب الممتنع ، وليس كذلك ، إذ معناه : لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه فى الإسلام مثل ما يحب لنفسه ، والقيام بذلك يحصل بأن يحب له حصول مثل ذلك من جهة لا يزاحمه فيها ، بحيث لا تنقص النعمة على أخيه شيئاً من النعمة عليه ، وذلك سهل على القلب السليم، وإنما يعسر على القلب الدغل ، عافانا الله وإخواننا أجمعين ... والله أعلم (٣).

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان ، باب من الإيمان ، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، برقم ١٣ ، صحيح البخارى بشرحه فتح البارى ٧٣/١ .
وأخرجه مسلم فى كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير ، برقم ٤٥ ، صحيح مسلم بشرح النووى ٢٩٢/١ .

(٢) فتح البارى ٧٤/١ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ٢٩٢/١ .

حادى عشر : من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .

قلنا فى الدرس السابق : إن الإنسان لا ينتفى عنه مطلق الخسر إلا بتكميل غيره، بعد كماله فى نفسه ، وتكميله لغيره يكون بالتواصى بالحق والتواصى بالصبر .

وهذا يعنى اهتمام الفرد المسلم بأمور غيره من المسلمين ، فالمسلم لا يعيش لنفسه فقط ، وليس من خُلقه أن يهتم بأمره دون أمور المسلمين من حوله ، فى مشارق الأرض ومغاربها.

ليس من العقلاء مَن يهتم بنفسه من مسكن وملبس ومطعم ومشرب ومركب وزوجة وذرية ، ولا يهمه ما يجرى لغيره من المسلمين ، ليس ذلك من الإسلام فى شئ .

وإنى لأعجب من أولئك الذين تبلد فيهم الإحساس ، فخوت نفوسهم ، وضعف إيمانهم ، وأصبحوا وأمسوا يسمعون ويشاهدون مآسى المسلمين فى شتى بقاع الأرض، من قتل وتشريد ودمار ، ولا يحركون ساكناً .

دماء المسلمين تسيل ، وأعراض المسلمات تنتهك ، وبنات المسلمين تغتصب ، وأرض المسلمين تستقطع ، وأموال المسلمين تسرق ، وأطفال المسلمين يذبحون ، وأبناء المسلمين يشردون ....وكأن الأمر لا يعنيهم.

وتسمع منهم هذه العبارات الشيطانية ، التى ألقاها إليهم الشيطان فأخذوا يديرونها على كل وجهٍ ، ويتشدقون بها فى كل مجال ، مثل قولهم : وماذا نملك لهم ، ما لنا ولهم ، هم هناك ونحن هنا ، هم الذين فعلوه بأنفسهم ، كل واحد فى حاله ، أنحمل هَمَّنا وهَمّ غيرنا ، أنا ومن بعدى الطوفان ، وغير ذلك من الكلمات الإبليسية فى هذا المجال. ونسى هؤلاء – أو تناسوا – أن الأمة الإسلامية فى شتى بقاع الأرض أمة واحدة ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ...** ﴾ (١).

ونسى هؤلاء – أو تناسوا – قول النبى ﷺ : "**مَثَل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم ، مثل الجسد . إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**"(٢).

---

(١) أول الآية ٥٢ من سورة المؤمنون ، وفى الأنبياء ٩٢ " إن هذه ... " الآية بدون الواو .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب ، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم ، برقم ٢٥٨٦ ، صحيح مسلم بشرح النووى ٣٨٤/٨ .

لا يمكن أن يكون هناك مسلم حقيقى لا يهتم لأمر أمته ، لا بد أن يتقطع قلبه زفرات ، وتذهب نفسه حسرات ، كلما سمع أو قرأ أو شاهد مآسى الأمة الإسلامية فى كل زمان ومكان .

وإن لم يفعل ذلك فليراجع إيمانه ، وليجدد توبته ، لعل الله سبحانه وتعالى أن يهديه سواء السبيل .

ثانى عشر : لا غنى للإنسان عن الصبر .

فالإنسان لا يستغنى عن الصبر فى أى حال من أحواله ، وقد سبق توضيح ذلك بما يغنى عن إعادته هنا .

لكن من الكلمات التى تجدر الإشارة إليها هنا ، ما حُفِظ من خطب الحجاج ، حيث قال رحمه الله :

اقدعوا(١) هذه النفوس ، فإنها طُلَعَة(٢) إلى كل سوء ، فرحم الله امرءاً جعل لنفسه خطاماً وزماماً ، فقادها بخطامها إلى طاعة الله ، وصرفها بزمامها عن معاصى الله ، فإن الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه " (٣).

نسأل الله العلى القدير أن يرزقنا الإخلاص فى القول والعمل ، وفى السر والعلن ، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

إنه ولى ذلك والقادر عليه ، والحمد لله رب العالمين ...

وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد :

فهذا غاية ما يسره الله لي ، ووصل إليه علمى وبحثى ، وما ادعيت لنفسى فقهاً ولا لبحثى كمالاً ، ولكن أجهدت نفسى قدر استطاعتى.

وقد تم الفراغ منه فى يوم الإثنين المبارك ، لسبع وعشرين خلون من شهر المحرم ، سنة ألف وأربعمائة وسبع وعشرين من الهجرة العلية .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

وفى ختام هذا العمل المتواضع أسأل الله العلى القدير أن يتقبله منى ، وأن ينفع به كل من اطلع عليه ، والإسلام والمسلمين ، وأن يجعله بفضله ورحمته فى ميزان

(١) أى كفوها وامنعوها واكبحوها ، أفاده الصحاح ٢/٩٧٣ مادة قدع .
(٢) نفسٌ طُلَعَةٌ – كهُمَزَة – أى كثيرة التطلع إلى الشئ ، الصحاح ٢/٩٦٩ مادة طلع .
(٣) عدة الصابرين : ١٩ .

حسنات والدَىَّ وحسناتى يوم الدين ، وأن يتجاوز عما وقع فيه من أخطاء غير مقصودة ، دفعتنى إليها العجلة ، وقلة البضاعة ، وعدم امتلاك أدوات الاجتهاد ، فوق القصور البشرى ، الذى لا يسلم من تبعاته إلا معصوم ...

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به . واعف عنا . واغفر لنا . وارحمنا . أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

دكتـــور

أحمد رمضان مصطفى دياب

الفيوم فى : ٢٠٠٦/٢/٢٧ م

فهرس المراجع والمصادر

١- القرآن الكريم . كلام الله رب العالمين .

٢- إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربعة عشر ، للبناء ، ط دار الكتب العلمية – بيروت – ، الطبعة الأولى سنة ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م .

٣- الإتقان فى علوم القرآن ، للسيوطى ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط دار التراث بالقاهرة ، بدون تاريخ .

٤- إحياء علوم الدين ، للغزالى ، ط دار الكتب العلمية ، بدون تاريخ .

٥- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، المشهور بتفسير أبى السعود ، ط دار الفكر ، بيروت ، بدون تاريخ .

٦- أساس البلاغة ، للزمخشرى ، تحقيق : محمد باسل ، ط دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى سنة ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م .

٧- إعراب القرآن ، لأبى جعفر النحاس ، تحقيق : د/ زهير غازى ، ط عالم الكتب – بيروت – الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨م.

٨- البحر المحيط ، لأبى حيان ، ط دار الفكر ، سنة ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م .

٩- تاريخ الخلفاء للسيوطى ، تحقيق : جمال محمود مصطفى ، ط دار الفجر – القاهرة – الطبعة الأولى سنة ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م .

١٠-التحرير والتنوير ، للطاهر بن عاشور ، ط الدار التونسية ، سنة ١٩٨٤ م .

١١- تفسير الخازن ، المسمى : لباب التأويل فى معانى التنزيل ، ط دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م .

١٢- التفسير الكبير ، للرازى ، ط دار الكتب العلمية ، سنة ١٤١١ هـ – ١٩٩٠م .

١٣- جامع البيان فى تأويل آى القرآن ، المشهور بتفسير الطبرى ، ط الحلبى بمصر، الطبعة الثالثة ، سنة ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨ م .

١٤- الجامع لأحكام القرآن ، المشهور بتفسير القرطبى ، ط دار الكتب العلمية ، الطبعة الخامسة ، سنة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م .

١٥- حاشية الجمل على الجلالين ، المُسماة : الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، ط الحلبى بمصر بدون تاريخ .

١٦- حاشية الصاوى على الجلالين ، ط الحلبى بمصر بدون تاريخ .

١٧- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ، المشهور بتفسير الألوسى ، ط دار الفكر – بيروت – سنة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م .

١٨- السراج المنير ، المشهور بتفسير الخطيب الشربينى ، تحقيق : إبراهيم شمس الدين ، ط دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م.

١٩- سنن ابن ماجة ، تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقى ، ط الحلبى بمصر بدون تاريخ.

٢٠- سنن أبى داود ، ط دار الحديث بالقاهرة ، سنة ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

٢١- سنن الترمذى ، ط دار الفكر – بيروت – سنة ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م .

٢٢- الصحاح ، المُسمى : تاج اللغة وصحاح العربية ، للجوهرى ، تحقيق : شهاب الدين أبو عمرو ، ط دار الفكر ، الطبعة الأولى سنة ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨ م .

٢٣- صحيح البخارى بشرحه فتح البارى ، ط دار الريان بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٧ – ١٩٨٦م .

٢٤- صحيح مسلم بشرح النووى ، ط دار الحديث بالقاهرة ، سنة ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.

٢٥- عِدَّة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، لابن القيم ، ط مكتبة الإيمان بالمنصورة – مصر – الطبعة الأولى سنة ١٤١٥هـ – ١٩٩٤ م .

٢٦- فى ظلال القرآن ، للشهيد سيد قطب ، ط دار الشروق ، الطبعة الرابعة والثلاثون ، سنة ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م .

تأصيل ثقافة الحوار
في
الفكر العربي والإسلامي

إعداد
الدكتور مبارك بن سيف بن سعيد الهاشمي
الأستاذ المشارك بكلية التربية
جامعة السلطان قابوس
سلطنة عمان - مسقط